سورة المؤمن

مكّيّة،[1] وهي خمس وثمانون، أو ثنتان وثمانون[2] آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾

﴿حمٓ﴾ بتفخيم الألِف[3] وتَسكين الميم. وقُرئ بإمالة الألِف،[4] وبإخراجِها بينَ بينَ،[5] وبفتح الميم[6] لالتقاء الساكنين، أو نصبِها بإضمارِ "اقرأ" ونحوِه. ومنع الصرف للتعريف والتأنيث، أو للتعريف وكونها على زِنة قابيل وهابيل. وبقيّة الكلام فيه وفي قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كالذي سلَف في ﴿الٓمٓ﴾ السجدة. وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ كما في مطلعِ سورة الزمر في الوجوه كلّها. ووَجه التعرّض لنعتيِ العزّة والعِلم ما ذُكِر هناك.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ إمّا صفاتٌ أُخَرُ لتحقيق ما فيها مِن الترغيب والترهيب، والحثِّ على ما هو المقصود. والإضافة فيها حقيقيّة على أنّه لم يُرَد بها زمان مخصوص، وأريدَ بـ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ مُشدِّدِه،[7] أو الشديدِ عِقابُه بحذف اللام للازدواجِ[8] وأمْنِ الالتباس. أو أبدالٌ،[9] وجعلُه وحده بدلًا

---

١ س + قال الحسَن: إلّا قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [غافر، ٤٠/٥٥]؛ لأنّ الصلوات نزلت بالمدينة.

٢ س ي - أو ثنتان وثمانون.

٣ المراد بتفخيم الألف هنا فتحها الذي هو ضدّ الإمالة.

٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخلَف وابن ذكوان وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٧٠.

٥ قرأ بها ورش عن نافع، وهو أحد الوجهين عن أبي عمرو، والوجه الثاني له الفتح. النشر لابن الجزري، ٢/٧٠.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٧ كذا ضبطه المصنّف تبعًا بـ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾.

٨ أي: إنّما حذف الألف واللام مِن شديد العقاب ليزاوج ما قبله وما بعده لفظًا. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١٤٩.

٩ السياق: إمّا صفاتٌ أُخَرُ... أو أبدالٌ...

-كما فعله الزجّاج-[١] مشوِّش للنظم.

وتوسيط الواو بين الأوّلَين لإفادة الجمعِ بين "مَحو الذنوب" و"قبول التوبة"، أو تغايرِ الوصفين؛ إذ ربّما يُتوهّم الاتّحاد، أو تغايرِ موقعِ الفعلين؛ لأنّ "الغَفْر" هو السَّتر مع بقاء الذنب، وذلك لمَن لم يتب، «فإنّ التائب مِن الذنب كمَن لا ذنبَ له».[٢]

و﴿ٱلتَّوْبِ﴾ مصدر كالتوبة، وقيل: هو جمعها.[٣] و﴿ٱلطَّوْلِ﴾ الفضل بترك العقاب المُستَحَقّ، وفي توحيد صفة العذاب مغمورةً بصفات الرحمة دليل سَبقها ورُجحانها.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجب الإقبال الكلّي على طاعته في أوامره ونواهيه. ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فحَسْب، لا إلى غيره، لا استقلالًا ولا اشتراكًا، فيجازي كلًّا مِن المطيع والعاصي.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٤﴾

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالطعن فيها، واستعمالِ المقدّمات الباطلة / لإدحاض الحقّ، كقوله تعالى: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر، ٥/٤٠]. [٢٠ظ]

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بها، وأمّا الذين آمنوا فلا يَخطر ببالهم شائبة شبهة منها فضلًا عن الطعن فيها. وأمّا الجدالُ فيها لحَلّ مشكلاتها وكشف مُعضلاتها واستنباطِ حقائقها الكلّيّة وتوضيحِ مناهجِ الحقّ في مضايق الأفهام ومزالق الأقدام وإبطالِ شُبَه أهل الزيغ والضلال فمِن أعظم الطاعات، ولذلك قال عليه السلام: «إنّ جدالًا في القرآن كُفر»[٤] بالتنكير للفرق بين جدالٍ وجدالٍ.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ لترتيب النهي أو وجوبِ الانتهاء على ما قبلها مِن التسجيل عليهم بالكفر الذي لا شيء أمقَتُ منه عند الله تعالى، ولا أجلَبُ لخُسران الدنيا والآخرة، فإنّ مَن تحقّق ذلك

---

١ انظر: معاني القرآن للزجّاج، ٣٦٦/٤.

٢ حديث عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في سنن ابن ماجه، ١٤١٩/٢ (٤٢٥٠)؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ٢٥٩/١٠ (٢٠٥٦١).

٣ أي: جمع التوبة، والمراد إنّه اسم جمعي، كتَمر وتَمرة. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ٣٥٦/٧.

٤ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٥/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ١٥٠/٤. وهو في مسند أحمد، ٤٨٦/١٢ (٧٥٠٨)، بلفظ: «جدالٌ في القرآن كُفر».

لا يكاد يغترّ بما لهم مِن حظوظ الدنيا وزخارفها، فإنّهم مأخوذون عمّا قليل أخذَ مَن قبلهم مِن الأمم حسبما ينطق به قوله تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الذين تحزّبوا على الرسل وناصبوهم بعد قوم نوحٍ، مثل عاد وثمود وأضرابهم. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ مِن تلك الأمم العاتية ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ وقرئ: "بِرَسُولِهَا"[1] ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليَتمكّنوا منه فيصيبوا به ما أرادوا مِن تعذيب أو قتل، مِن الأخذ بمعنى الأسْر.

﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الذي لا أصلَ ولا حقيقةَ له أصلًا ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ الذي لا مَحيد عنه كما فعل هؤلاء، ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بسبب ذلك أخذَ عزيز مُقتدِر. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الذي عاقبتهم به، فإنّ آثار دمارهم عُرضة للناظرين، ولآخُذَنَّ هؤلاء أيضًا لاتّحادهم في الطريقة واشتراكهم في الجَريرة، كما يُنبئُ عنه قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: كما وجَب وثبَت حكمه تعالى وقضاؤه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذِّبة المُتحزِّبة على رسلهم المجادِلةِ بالباطل لإدحاض الحقّ به، وجَب أيضًا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي: كفروا بك وتحزّبوا عليك وهمّوا بما لم ينالوا، كما يُنبئ عنه إضافة اسم الربّ إلى ضميره عليه السلام، / فإنّ ذلك للإشعار بأنّ وجوب كلمة العذاب عليهم مِن أحكام تربيته [٢١و] التي مِن جملتها نُصرته عليه السلام وتعذيب أعدائه، وذلك إنّما يتحقّق بكون الموصول عبارة عن كفّار قومه، لا عن الأمم المهلَكَة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في حيّز النصب بحذف لام التعليل، أي: لأنّهم مستحِقّو[2] أشدِّ العقوبات وأفظعِها التي هي عذاب النار، وملازموها أبدًا

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٢ في الأصول الخطّيّة: "مستحقّوا" بألف بعد الواو.

لكونهم كفّارًا معاندين متحزّبين على الرسول عليه السلام، كدأب مَن قبلهم مِن الأمم المُهلَكة، فهم لِسائر فنون العقوبات أشدُّ استحقاقًا وأحقُّ استيجابًا. وقيل: هو في محلّ الرفع على أنّه بدل مِن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، والمعنى: مثل ذلك الوجوب وجَب على الكفَرة المُهلَكة كونَهم مِن أصحاب النار، أي: كما وجب إهلاكهم في الدنيا بعذاب الاستئصال، كذلك وجب تعذيبهم بعذاب النار في الآخرة. ومحلّ الكاف على التقديرين النصب على أنّه نعت لمصدر محذوف.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ وهم أعلى طبقات الملائكة عليهم السلام، وأوّلهم وجودًا. وحَملُهم إيّاه وحَفيفُهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له، وكنايةٌ عن زُلفاهم[1] مِن ذي العرش جلّ جلاله ومكانتِهم عنده. ومحلّ الموصول الرفع على الابتداء، خبره: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، والجملة استئناف مَسوق لتسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببيان أنّ أشراف الملائكة عليهم السلام مثابرون على ولاية مَن معه مِن المؤمنين ونصرتِهم واستدعاءِ مَا يُسْعِدُهم في الدارَين، أي: ينزّهونه تعالى عن كلّ ما لا يليق بشأنه الجليل ملتبسين بحمده على نَعمائه التي لا تتناهى.

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ إيمانًا حقيقًا بحالهم. والتصريح به مع الغِنَى عن ذكره رأسًا لإظهار فضيلةِ الإيمان، وإبرازِ شرف أهلِه، والإشعارِ بعلّة دعائهم للمؤمنين حسبما ينطق به قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فإنّ المشاركة في الإيمان أقوى المناسبات وأتمّها وأَدْعَى الدواعي إلى النصحِ والشفقة. / وفي نظم استغفارهم [٢١ظ] لهم في سِلك وظائفهم المفروضة عليهم مِن تسبيحهم وتحميدهم وإيمانهم إيذانٌ بكمال اعتنائهم به، وإشعارٌ بوقوعه عند الله تعالى في موقع القبول.

---

١ أي: قُربهم. والزلفة والزلفى: القربة والمَنزلة. **الصِّحاح** للجوهري، «زلف».

رُوي أنّ حملة العرش أرجلُهم في الأرض السفلى، ورءوسهم قد خرقت العرش، وهم خُشوع لا يرفعون طرفهم.[١]

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «لا تتفكّروا في عِظَم ربّكم، ولكن تفكّروا فيما خلق الله مِن الملائكة، فإنّ خلقًا مِن الملائكة يقال له: إسرافيل، زاويةٌ مِن زوايا العرش على كاهِله، وقدماه في الأرض السفلى، وقد مرَق رأسه[٢] مِن سبع سماوات، وإنّه لَيتضاءل مِن عظَمة الله حتّى يصير كأنّه الوَصَعُ».[٣]

وفي الحديث: «إنّ الله أمرَ جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلًا لهم على سائرهم».[٤]

وقيل: خلق الله تعالى العرش مِن جوهرة خضراء، وبين القائمتين مِن قوائمه خفَقان الطيرِ المُسرِعِ ثمانين ألفَ عامٍ.[٥]

وقيل: حول العرش سبعون ألفَ صفٍّ مِن الملائكة يطوفون به مهلِّلين مكبِّرين، ومِن ورائهم سبعون ألفَ صفٍّ قيامٌ قد وضعوا أيديهم على عواتقهم رافعين أصواتهم بالتهليل والتكبير، ومِن ورائهم مائةُ ألفِ صفٍّ، قد وضعوا أيمانهم على الشمائل، ما منهم أحد إلّا وهو يُسبّح بما لا يُسبّح به الآخر.[٦]

﴿رَبَّنَا﴾ على إرادة القول، أي: يقولون: ربّنا، على أنّه إمّا بيان لاستغفارهم أو حال. ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي: وسعَتْ رحمتُك وعلمك، فأزيل عن أصله للإغراق في وصفه تعالى بالرحمة والعِلم، والمبالغةِ في عمومهما. وتقديم الرحمة لأنّها المقصودة بالذات ههنا.

---

١ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٦٦/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥١/٤.

٢ أي: خَرَقها وخرج مِن الجانب الآخر. انظر: **الصِّحاح** للجوهري، «مرق».

٣ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٦٦/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٤. قال الزيلعي: "غريب". **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ٢١٨/٣. | والوَصَع: طائر أصغر مِن العصفور. **الصِّحاح** للجوهري، «وصع».

٤ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٦٧/٨؛ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٤.

٥ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٤؛ **تفسير القرطبي**، ٢٩٤/١٥.

٦ **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٢/٤؛ **تفسير القرطبي**، ٢٩٤/١٥. ونحوه في **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٦٧/٨.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ أي: للذين علمتَ منهم التوبةَ واتّباعَ سبيل الحقّ؛ لترتيب الدعاء على ما قبلها مِن سَعة الرحمة والعِلم. ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ واحفظهم عنه، وهو تصريح بعد إشعارٍ للتأكيد.

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨﴾

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿قِهِمۡ﴾.[١] وتوسيط النداء بينهما للمبالغة في الجُؤار.[٢] ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ أي: وعدتَهم إيّاها. وقُرئ: "جَنَّةَ عَدْنٍ".[٣]

[٢٢و] ﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ/ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ أي: صلاحًا مصحِّحًا لدخول الجنّة في الجملة، وإن كان دون صلاحِ أصولهم. وهو عطفٌ على الضمير الأوّل، أي: وَأَدخِلها[٤] معهم هؤلاء؛ ليتِمّ سرورهم، ويتضاعف ابتهاجهم. أو على الثاني، لكن لا بناءً على الوعد العامّ للكلّ كما قيل؛[٥] إذ لا يبقى حينئذ للعطف وجه؛ بل بناءً على الوعد الخاصّ بهم بقوله تعالى: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور، ٢١/٥٢]، بأن يكونوا أعلى درجة مِن ذرّيّتهم.

قال سعيد بن جُبير: «يدخل المؤمن الجنّة فيقول: "أين أبي؟ أين ولدي؟ أين زوجي؟" فيقال: "إنّهم لم يعملوا مثل عملك"، فيقول: "إنّي كنت أعمل لي ولهم"، فيقال: "أَدْخِلوهم الجنّة"».[٦]

وسبْقُ الوعد بالإدخال والإلحاق لا يستدعي حصول الموعود بلا توسّط شفاعةٍ واستغفارٍ، وعليه مبنى قولِ مَن قال: فائدة الاستغفار زيادة الكرامة والثواب. والأوّل هو الأَولى؛ لأنّ الدعاء بالإدخال فيه صريح، وفي الثاني ضِمني.

---

١ في الآية السابقة.

٢ الجُؤار: رفع الصوت مع تضرّع واستغاثة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «جأر».

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٤ وفي هامش م: أي: جنّات عدن «منه».

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥٢/٥.

٦ جامع البيان للطبري، ٢٨٦/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٨/٨.

وقُرئ: "صَلُحَ" بالضمّ،[١] و"ذُرِّيَّتِهِمْ" بالإفراد.[٢]

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي: الذي لا يفعل إلّا ما يقتضيه الحكمة الباهرة مِن الأمور التي مِن جملتها إنجاز الوعد. فالجملة تعليل لِما قبلها.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٩﴾

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: العقوباتِ؛ لأنّ جزاء السيّئة سيّئة، أو جزاءَ السيّئات على حذف المضاف، وهو تعميم بعد تخصيص، أو مخصوصٌ بالأتباع، أو المعاصِيَ في الدنيا، فمعنى قوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾: ومَن تَقِهِ المعاصيَ في الدنيا فقد رحمته في الآخرة، كأنّهم طلبوا لَهم السببَ بعدما سألوا المسبَّبَ.

﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الرحمة المفهومة مِن ﴿رَحِمْتَهُۥ﴾، أو إليها وإلى الوقاية. وما فيه مِن معنى البعد لِما مرّ مرارًا مِن الإشعار ببُعد درجة المشار إليه. ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا مَطمَع وراءه لطامع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شروع في بيان أحوال الكفَرة بعد دخولهم النار بعد ما بُيّن فيما سبق ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.[٣] ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أي: مِن مكان بعيد، وهم في النار، وقَد مقَتُوا أنفسهم الأمّارة بالسوء التي وقعوا فيما وقعوا باتّباعِ هواها، أو مقَتَ بعضُهم بعضًا مِن الأحباب، كقوله تعالى: / ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت، ٢٥/٢٩]، أي: أبغضوها أشدّ البغض، وأنكروها أبلغ الإنكار، وأظهروا ذلك على رءوس الأشهاد، فيقال لهم عند ذلك: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لمَقت الله أنفسَكم الأمّارةَ بالسوء، أو مَقتُه إيّاكم في الدُّنيا. [٢٢ظ]

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٣ غافر، ٦/٤٠.

﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ مِن جهة الأنبياءِ ﴿إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ فتأبَونَ قَبوله ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ اتّباعًا لأنفسكم الأمّارة، ومسارعةً إلى هواها، أوِ اقتداءً بأخِلّائكم المضلِّين، واستحبابًا لآرائهم أكبرَ مِن مَقتكم أنفسَكم الأمّارة، أو مِن مَقت بعضكم بعضًا اليوم. فـ﴿إِذْ﴾ ظرف للمَقت الأوّل وإن توسّط بينهما الخبر، لِما في الظروف مِن الاتّساعِ. وقيل: لمصدر آخَر مقدّر، أي: مقتُه إيّاكم إذ تُدعَون. وقيل: مفعول لـ"اذكروا". والأوّل هو الوجه.

وقيل: كلا المَقْتَين في الآخرة، و﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ تعليل لِما بين الظرف والسبب مِن علاقة اللزوم. والمعنى: لَمَقتُ الله إيّاكم الآن أكبر مِن مَقتكم أنفسَكم لِما كنتم تُدعَون إلى الإيمان فتكفرون. وتخصيص هذا الوجه بصورة كون المراد بـ"أنفسهم" أضرابَهم ممّا لا داعي إليه.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ صفتان لمصدرَي الفعلين المذكورين، أي: إماتتَين وإحياءتَين، أو موتتَين وحياتَين، على أنّهما مصدران لهما أيضًا بحذف الزوائد، أو لفعلين يدلّ عليهما المذكوران، فإنّ الإماتة والإحياء يُنبئانِ عن الموت والحياة[1] حتمًا، كأنّه قيل: أمتَّنا فمُتنا موتتَين اثنتَين، وأَحيَيْتَنا فَحَيِينَا حياتَين[2] اثنتين، على طريقة قول مَن قال:

وعضّةُ دهرٍ يا ابنَ مروانَ لم يدَع ... مِن المال إلّا مُسْحَتٌ أو مُجلَّفُ[3]

أي: لَم يدَع فلم يبقَ إلّا مُسحَت... إلخ.

---

١ م س: والحيوة.

٢ م س: حيوتين.

٣ للفرزدق في ديوانه، ص ١١٧، بلفظ:

وعضّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم تدَع ... مِن المال إلّا مُسْحَتًا أو مُجرَّفُ

والمُسحَت: الذي لم يبق منه بقيّة. والمجلّف: الذي ذهَب معظمه، وبقي منه شيء يسير. قال الزمخشري: «هذا البيت ما تزال الرُّكَب تصطكّ في تسوية إعرابه». **الكشّاف** للزمخشري، ٧٢/٣. وقال ابن قتيبة: «رفع الفرزدق آخر البيت ضرورةً، وأتعبَ أهل الإعراب في طلب العلّة، فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا منه بشيء يُرتضى». **الشعر والشعراء** لابن قتيبة، ٨٩/١.

قيل: أرادوا بالإماتة الأولى خَلْقَهم أمواتًا، وبالثانية إماتتَهم عند انقضاء آجالهم، على أنّ الإماتة جعل الشيء عادِم الحياة، أعمّ مِن أن يكون بإنشائه كذلك، كما في قولهم: "سبحان مَن صغّر البعوض وكبّر الفيل"، أو بجعله كذلك بعد الحياة وبالإحياءين الإحياءَ الأوّلَ وإحياءَ البعث.

وقيل: أرادُوا بالإماتة الأولى ما بعد حياة الدنيا، وبالثانية ما بعد حياة القبر، وبالإحياءين: ما في القبر وما عند البعث، / وهو الأنسب بحالهم. وأمّا [٢٣و] حديث لزوم الزيادة على النصّ[1] ضرورة تحقّق حياة الدنيا فمدفوع، لكن لا بما قيل مِن عدم اعتدادهم بها لزوالها وانقضائها وانقطاعِ آثارها وأحكامها؛ بل بأنّ مقصودهم إحداث الاعتراف بما كانوا يُنكرونه في الدنيا كما ينطق به قولهم: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ والتزام العمل بموجَب ذلك الاعتراف؛ ليتوسّلوا بذلك إلى ما علّقوا به أطماعهم الفارغة مِن الرَجْعِ إلى الدنيا، كما قد صرّحوا به حيث قالوا: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢]، وهو الذي أرادوه بقولهم: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ مع نوعِ استبعادٍ له واستشعار يأسٍ منه، لا أنّهم قالوهُ بطريق القنوط البحت كما قيل.[2]

ولا ريب في أنّ الذي كانوا ينكرونه ويفرّعون عليه فنون الكفر والمعاصي ليس إلّا الإحياءَ بعد الموت، وأمّا الإحياء الأوّل فلم يكونوا ينكرونه لينظموه في سلك ما اعترفوا به وزعموا أنّ الاعتراف به يُجديهم نفعًا، وإنّما ذكروا الموتة الأولى مع كونهم معترفين بها في الدنيا لتوقّف حياة القبر عليها، وكذا حال الموتة في القبر، فإنّ مقصدهم الأصلي هو الاعتراف بالإحياءين، وإنّما ذكروا الإماتتين لترتيبهما عليهما ذِكرًا حسب ترتّبهما عليهما وجودًا.

وتنكيرُ ﴿سَبِيلٍ﴾ للإبهام، أي: مِن سبيلٍ مّا كيفما كان.

---

١ وفي هامش م: بناء على أنّ لفظ ﴿ٱثْنَتَيْنِ﴾ نصّ في مدلوله. «منه». | قال الزمخشري: «ومَن جعل الإماتتين التي بعد حياة الدنيا والتي بعد حياة القبر لزِمَه إثبات ثلاث إحياءات، وهو خلاف ما في القرآن، إلّا أن يتَمحّل فيجعل إحداها غيرَ معتدّ بها، أو يزعم أنّ الله تعالى يُحييهم في القبور، وتستمرّ بهم تلك الحياة فلا يموتون بعدها». **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٥/٤.

٢ انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ١٥٥/٤.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم﴾... إلخ جواب لهم باستحالة حصول ما يرجونه ببيان ما يوجبها مِن أعمالهم السيّئة، أي: ذلكم الذي أنتم فيه مِن العذاب مطلقًا -لا مقيّدًا بالخلود كما قيل-[1] ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ أي: بسبب أنّ الشأن ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ﴾ في الدنيا، أي: عُبِد ﴿وَحْدَهُۥ﴾ أي: منفردًا ﴿كَفَرْتُمْ﴾ أي: بتوحيده، ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ / أي: بالإشراك به وتُسارعوا فيه. [٢٣ظ]

وفي إيراد ﴿إِذَا﴾ وصيغةِ الماضي في الشرطيّة الأُولى و﴿إِن﴾ وصيغةِ المضارعِ في الثانية ما لا يخفى مِن الدلالة على كمال سوء حالهم.

وحيث كان حالكم كذلك ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ الذي لا يحكم إلّا بالحقّ، ولا يقضي إلّا بما يقتضيه الحكمة، ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ الذي ليس كمثله شيء في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا مُعقِّب لحُكمه، وقد حكَم بأنّه لا مغفرة للمشرك، ولا نهاية لعقوبته، كما لا نهاية لشَناعته، فلا سبيل لكم إلى الخروج أبَدًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالّة على شئونه العظيمة الموجبة لتفرُّده بالألوهيّة لتستدلّوا بها على ذلك، وتعملوا بموجَبها فتوحِّدوه تعالى، وتَخُصُّوه بالعبادة. ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتشديد. وقُرئ بالتخفيف[2] مِن الإنزال. ﴿لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي: سببَ رزق، وهو المطر، وإفرادُه بالذكر مع كونه مِن جملة الآيات الدالّة على كمال قدرته تعالى لتفرُّده بعنوان كونه مِن آثار رحمته وجلائل نعمته المُوجبة للشكر. وصيغة المضارعِ في الفعلين للدلالة على تجدّد الإراءة والتنزيل واستمرارهما. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول لِما مرّ غير مرّة.

---

١ انظر: اللباب لابن عادل، ٢١/١٧.

٢ أي: "وَيُنْزِلُ". قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢١٨/٢.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات الباهرة ولا يَعمل بمقتضاها ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ إلى الله تعالى، ويتفكّر فيما أودعه في تضاعيف مصنوعاته مِن شواهد قدرته الكاملة ونعمته الشاملة الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى، ومَن ليس كذلك فهو بمَعزِل مِن التذكّر والاتّعاظ.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: إذا كان الأمر كما ذكر مِن اختصاص التذكّر بمَن ينيب فاعبدوه أيّها المؤمنون مخلصين له دينكم بموجَب إنابتكم إليه تعالى وإيمانكم به، ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ ذلك وغاظَهم إخلاصُكم.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَـٰتِ﴾ نحو: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ [البقرة، ١١٧/٢] على أنّه صفة مشبَّهة أضيفت إلى فاعلها بعد النقل إلى فَعُل بالضمّ كما هو المشهور -وتفسيره بـ"الرافع" ليكون مِن إضافة اسم الفاعل إلى المفعول[1] بعيدٌ في الاستعمال- أي: رفيع درجات ملائكتِه، / أي: معارجِهم ومصاعدِهم إلى العرش. ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مالكه. [٢٤و]

وهما خبران آخران لقوله تعالى: ﴿هُوَ﴾،[2] أُخبِر عنه بهما إيذانًا بعلوّ شأنه تعالى وعِظَم سلطانه الموجِبَين لتخصيص العبادة به وإخلاص الدين له، إمّا بطريق الاستشهاد بهما عليهما، فإنّ ارتفاع معارج ملائكته إلى العرشِ وكون العرش العظيم المحيط بأكناف العالم العلوي والسفلي تحت ملكوته وقبضةِ قدرته ممّا يَقْضِي بكونِ علوّ شأنه وعِظَم سلطانه في غايةٍ لا غايةَ وراءها. وإمّا بجعلهما عبارةً عنهما بطريق المجاز المتفرّعِ على الكناية، كالاستواء على العرش. وتمهيدًا[3] لِمَا يعقُبهما مِن قوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾، فإنّه خبر آخر لِما ذكر،

---

١ انظر: **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٢٤٣/٩؛ **وتفسير القرطبي**، ٢٩٩/١٥.

٢ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ الآيةَ [غافر، ١٣/٤٠].

٣ وفي هامش م: عطفٌ على "إيذانًا". «منه».

مُنْبئ عن إنزال الرزق الروحاني الذي هو الوحي بعد بيان إنزال[١] الرزق الجسماني الذي هو المطر، أي: ينزل الوحي الجاري مِن القلوب منزلةَ الروح مِن الأجساد.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بيان لـ﴿ٱلرُّوحَ﴾ الذي أريد به الوحي، فإنّه أمر بالخير، أو حال منه، أي: حال كونه ناشئًا ومبتدِئًا مِن أمره، أو صفة له على رأي مَن يُجوّز حذف الموصول مع بعض صلته، أي: الروح الكائن مِن أمره، أو متعلّق بـ﴿يُلْقِى﴾، و﴿مِنْ﴾ للسببيّةِ كالباء، مثلَ ما في قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ [نوح، ٢٥/٧١]، أي: يُلقي الوحي بسبب أمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وهو الذي اصطفاه لرسالته وتبليغ أحكامه إليهم.

﴿لِيُنذِرَ﴾ أي: اللهُ تعالى، أو الملقَى عليه، أو الروح. وقُرئ: "لِتُنْذِرَ"[٢] على أنّ الفاعل هو الرسول عليه السلام، أو الروحُ؛ لأنّها قد تؤنّث. ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ إمّا ظرف للمفعول الثاني، أي: لِيُنذر الناس العذابَ يومَ التلاقي، وهو يوم القيامة؛ لأنّه يتلاقى فيه الأرواح والأجساد وأهل السماوات والأرض. أو هو المفعول الثاني اتّساعًا أو أصالةً، فإنّه مِن شدّة هَوله وفظاعته حقيق بالإنذار أصالةً. وقُرئ: "لِيُنْذَرَ" على البناء للمفعول ورفعِ "اليوم".[٣]

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۗ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾

[٢٤ظ] ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾،[٤] أي: خارجون مِن قبورهم، / أو ظاهرون لا يسترهم شيء مِن جبل أو أكَمةٍ أو بناءٍ، لكون الأرض يومئذ قاعًا صفصفًا، ولا عليهم ثياب، إنّما هم عُراة مكشوفون، كما جاء في الحديث: «يحشرون عُراةً حُفاةً غُرْلًا».[٥] وقيل: ظاهرةٌ نفوسهم لا يحجبهم غواشي الأبدان، أو أعمالُهم وسرائرهم.

---

١ م س - إنزال [«صحّ» في هامش م س].

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن واليماني. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٣.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن ويعقوب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٧.

٤ في الآية السابقة.

٥ صحيح البخاري، ١٦٨/٤ (٣٤٤٧)؛ صحيح مسلم، ٢١٩٤/٤ (٢٨٦٠). | "غُرْلًا" -بضمّ الغين المعجمة وإسكان الراء- معناه: غير مختونين. شرح صحيح مسلم للنووي، ١٩٣/١٧.

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ استئناف لبيان بُروزهم، وتقريرٌ له، وإزاحةٌ لِما كان يتوهّمه المتوهِّمون في الدنيا مِن الاستتار توهّمًا باطلًا، أو خبر ثانٍ. وقيل: حال مِن ضمير ﴿بَٰرِزُونَ﴾ أي: لا يخفى عليه تعالى شيءٌ مّا مِن أعيانهم وأعمالهم وأحوالهم الجليّة والخفيّة السابقةِ واللّاحِقة.

﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حكاية لِما يقع حينئذ مِن السؤال والجواب بتقدير قولٍ معطوف على ما قبله مِن الجملة المَنفيّة المستأنَفة، أو مستأنَفٍ يقع جوابًا عن سؤالٍ نشأ مِن حكاية بروزهم وظهور أحوالهم، كأنّه قيل: فماذا يكون حينئذ؟ فقيل: يُقال... إلخ، أي: ينادي منادٍ: لمَن المُلك اليوم؟ فيُجيبه أهل المَحشر: لله الواحد القهّار.

وقيل: المجيب هو السائل بعينه، لما رُوي أنّه يَجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد في أرض بيضاء، كأنّها سبيكة فضّة، لم يُعصَ اللهُ فيها قطُّ،[1] فأوّلُ ما يُتكلّم به أن ينادِيَ منادٍ: لمَن الملك اليومَ؟ لله الواحد القهّار.[2]

وقيل: هي حكايةٌ لِما يَنطق به لسان الحال مِن تقطُّع أسباب التصرّفات المجازيّة، واختصاص جميع الأفاعيل بقَبضة القدرة الإلهيّة.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾... إلخ إمّا مِن تتمّة الجواب لبيان حكم اختصاص المُلك به تعالى ونتيجتِه التي هي الحُكم السَّويّ والقضاء بالحقّ، أو حكاية لِما سيقوله تعالى يومئذ عَقيب السؤال والجواب، أي: تُجزَى كلُّ نفس مِن النفوس البَرّة والفاجرة بما كسبت مِن خير أو شرّ.

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عذاب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: سريعٌ حسابُه تمامًا؛ إذ لا يشغله تعالى[3] شأن عن شأن، فيحاسِب الخلائق قاطبةً في أقرب زمان، كما نُقل عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: / أنّه تعالى إذا أخذ [٢٥و]

---

١ س - قطّ.

٢ الكشّاف للزمخشري، ٤/١٥٧. وهو في الزهد والرقائق لابن المبارك، ٢/١١٥.

٣ س - تعالى.

في حسابهم لم يَقِلْ[1] أهلُ الجنّة إلّا فيها ولا أهلُ النار إلّا فيها.[2] فيكون تعليلًا لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ﴾... إلخ، فإنّ كون ذلك اليوم بعينه يومَ التلاقي ويومَ البُروز ربّما يوهِم استبعادَ وقوعِ الكلّ فيه. أو سريعٌ[3] مَجيئًا، فيكون تعليلًا للإنذار.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ أي: القيامة. سمّيت بها لأُزُوفِها؛ وهو القُرْب، غيرَ أنّ فيه إشعارًا بضيق الوقت. وقيل: الخُطّةِ الآزفةِ؛ وهي مشارفة أهل النار دخولَها. وقيل: وقتَ حضور الموت، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة، ٨٣/٥٦]، وقولِه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ [القيامة، ٢٦/٧٥].

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾، فإنّها ترتفع مِن أماكنها، فتلتصق بحُلوقهم، فلا تعود فيَترُوّحوا، ولا تَخرجُ فيَستريحوا بالموت. ﴿كَٰظِمِينَ﴾ على الغمّ، حال مِن أصحاب ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾ على المعنى؛ إذ الأصل: قلوبُهم، أو مِن ضميرها في الظرف. وجمع السلامة باعتبار أنّ الكَظْم مِن أحوال العقلاء، كقوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء، ٤/٢٦]، أو مِن مفعول ﴿أَنذِرْهُمْ﴾ على أنّها حال مقدَّرة، أي: أنذرهم مُقَدَّرًا كَظْمُهم، أو مُشارفين الكَظْم.

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: قريب مُشفِق، ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: لا شفيعٍ مُشفَّع،[4] على معنى نفي الشفاعة والطاعة معًا، على طريقة قوله:

على لَاحِبٍ لا يُهتَدَى بمَنارِهِ[5]

---

١ مِن القيلولة؛ وهي النوم في الظهيرة. انظر: الصِّحاح للجوهري، «قيل».

٢ الكشّاف للزمخشري، ١٥٧/٤. وفي التفسير الوسيط للواحدي، ٣٣٨/٣، عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم: «لا يتنصف النهار مِن يوم القيامة حتّى يَقيل أهل الجنّة في الجنّة، وأهل النار في النار». وهو في جامع البيان للطبري، ٥٥٦/١٩ (الصافات، ٦٨/٣٧)، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

٣ السياق: أي: سريعٌ حسابُه... أو سريعٌ مَجيئًا...

٤ وفي هامش م: والجملة حال أخرى. «منه».

٥ تمامه:

إذا سافَهُ العَودُ النباطيُّ جَرْجرا

وهو لامرئ القيس في ديوانه، ص ٦٦. وقوله: "على لاحِب" أي: على طريق واضح. وسافه: شمّه. والعَود: البعير الهرم. والجرجرة: صوت يردّده البعير في حنجرته، وإنّما يُجرجر في الطريق إذا شمّه، لِما يعرف مِن شدّته وصعوبة مَسلكه. انظر: أمالي ابن الشجري، ٢٩٩/١.

والضمائر إن عادت إلى الكفّار -وهو الظاهر- فوضعُ ﴿الظَّٰلِمِينَ﴾ مَوضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم، وتعليلِ الحكم به.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ النظرةَ الخائنةَ، كالنظرة الثانية إلى غير المَحرم، واستراقِ النظر إليه، أو خيانةَ الأعين على أنّها مصدر كالعافية، ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ مِن الضمائر والأسرار. والجملة خبر آخر -مثل: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾-[1] للدلالة على أنّه ما مِن خفيّ إلّا وهو متعلَّقُ العِلم والجزاء.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ لأنّه المالك الحاكم / على الإطلاق، فلا يقضي بشيء إلّا وهو حقّ وعدل. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ تعالى ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ تهكُّم بهم؛ لأنّ الجماد لا يقال في حقّه: يَقضي أوْ لا يَقضي. وقُرئ: "تَدْعُونَ" على الخطاب[2] التِفاتًا، أو على إضمار "قل". [٢٥ظ]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعيُن، وقضائِه بالحقّ، ووعيدٌ لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريضٌ بحال ما يدعون مِن دونه تعالى.[3]

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: مآل حال مَن قبلَهم مِن الأُمم المكذِّبة لرسلهم، كعاد وثمودَ وأضرابِهم.

﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرةً وتمكّنًا مِن التصرّفات. وإنّما جيء بضمير الفصل -مع أنّ حقّه التوسّط بين معرفتين- لمضاهاة "أفعلَ مِنْ" للمعرفة في امتناعِ

---

١ غافر، ١٥/٤٠.

٢ قرأ بها نافع وابن عامر بخُلف عن ابن ذكوان. النشر لابن الجزري، ٣٦٤/٢.

٣ س - تعالى.

دخول اللام عليه. وقُرئ: "أَشَدَّ مِنكُمْ" بالكاف.[١] ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مثل: القِلاع الحصينة، والمدائن المتينة. وقيل: المعنى: وأكثرَ آثارًا، كقوله:

مستقلِّدًا سيفًا ورُمحًا[٢]

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أخذًا وَبيلًا[٣] ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: مِن واقٍ يقيهم عذابَ الله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الأخذ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنّهم ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات، أو بالأحكام الظاهرة، ﴿فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ متمكِّن ممّا يريد غايةَ التمكّن، ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يُؤبَهُ عند عقابه بعقاب.[٤]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وهي معجزاته ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وحجّة قاهرة، وهي إمّا عين الآياتِ والعطفُ لتغاير العنوانين، وإمّا بعض مشاهيرها كالعصا، أُفردَت بالذِّكر مع اندراجها تحت الآيات لإنافتها إفرادَ جبريل وميكال به مع دخولِهما في الملائكة عليهم السلام.[٥]

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أي: فيما أظهره مِن المعجزات، وفيما ادّعاه مِن رسالة ربّ العالمين.

---

١ قرأ بها ابن عامر، وكذا هو في المصحف الشامي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٢ صدره:

يا ليت زوجَك قد غدا

وهو بغير نسبة في الصِّحاح للجوهري، «قلد»؛ ولسان العرب لابن منظور، «قلد».

٣ مِن قوله تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل، ٧٣/١٦]. وسيأتي في تفسير سورة المزّمّل: الوَبيل: الثقيل الغليظ، مِن قولِهم: "كلأٌ وَبيلٌ" أي: وَخيم.

٤ وفي هامش م: يقال: لا يُؤبَهُ بِهِ، ولا يُؤبَهُ له، أي: لا يُبالَى به. «منه».

٥ في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة، ٢/٩٨].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾

/ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ وهو ما ظهر على يده مِن المعجزات [٢٦و]
القاهرة ﴿قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ كما قال فرعون: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [الأعراف، ١٢٧/٧]، أي: أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلونه أوّلًا. وكان فرعون قد كفّ عن قتل الولدان، فلمّا بُعِث عليه السلامُ وأحسّ بأنّه قد وقع ما وقع أعاده عليهم غيظًا وحنَقًا وزعْمًا منه أنّه يصدّهم بذلك عن مظاهرته ظنًّا منهم أنّه المولود الذي حكم المُنجِّمون والكهَنةُ بذهاب مُلكهم على يده.

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في ضَياعٍ وبطلان لا يغني عنهم شيئًا، ويَنفُذ عليهم لا محالة القَدَرُ المقدورُ والقضاءُ المحتومُ. واللام إمّا للعهد، والإظهارُ في موقعِ الإضمار لِذمّهم بالكفر والإشعارِ بعلّة الحكم، أو للجنس وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًا. والجملة اعتراض جيء به في تضاعيف ما حُكي عنهم مِن الأباطيل للمسارعة إلى بيان بطلان ما أظهروه مِن الإبراق والإرعاد واضمحلالِه بالمَرّة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كان مَلَؤُه إذا همّ بقتله عليه السلام كفُّوه بقولهم: ليس هذا بالذي تخافه، فإنّه أقلّ مِن ذلك وأضعف، وما هو إلّا بعض السحَرة، وبقولهم: إذا قتلتَه أدخلتَ على الناس شبهةً، واعتقدوا أنّك عجزت عن معارضته بالحُجّة، وعدَلت إلى المقارعة بالسيف.

والظاهر مِن دهاء اللعين ونكارَته أنّه كان قد استيقن أنّه نبيّ، وأنّ ما جاء به آياتٌ باهرة، وما هو بسحرٍ، ولكن كان يخاف إن همّ بقتله أن يُعاجَل بالهلاك، وكان قوله هذا تمويهًا على قومه وإيهامًا أنّهم هم الكافّون له عن قتله، ولولاهم لَقتله،

وما كان الذي يكفّه إلّا ما في نفسه مِن الفزع الهائل، وقولُه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥ﴾ تَجلُّد منه، وإظهار لعدم المبالاة بدعائه، ولكنّه أَخْوفُ ما يخافه.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتله ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي: يُغيّر ما أنتم عليه مِن الدين الذي هو عبارة عن عبادته وعبادةِ الأصنام لتُقرّبهم إليه، ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ ما يفسد دنياكم مِن التحارُب والتهارُجِ إن لم يقدِر على تبديل دينكم بالكلّيّة. وقُرئ بالواو الجامعة.[1] وقُرئ بفتحِ الياء والهاء ورفع ﴿ٱلْفَسَادَ﴾.[2] وقُرئ: "يَظَّهَرَ" بتشديد الظاء والهاء،[3] مِن "تَظَهَّر" بمعنى "تظاهَر"، أي: تتابَع وتعاوَن. [٢٦ظ]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ أي: لقومه حين سمع بمَا تَقوَّله اللعين مِن حديث قتله عليه السلام: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صدَّر عليه السلام كلامه بـ"إنّ" تأكيدًا لَه وإظهارًا لِمزيد الاعتناء بمضمونه وفرطِ الرغبة فيه. وخصّ اسم الربّ المُنبئ عن الحفظ والتربية لأنّهما الذي يستدعيه، وأَضَافَهُ إليه وإليهم حثًّا لهم على موافقته في العياذ به تعالى والتوكّل عليه، فإنّ في تظاهر النفوس تأثيرًا قويًّا في استجلاب الإجابة، ولم يسمِّ فرعون؛ بل ذكَرَه بوصفٍ يعمّه وغيره مِن الجبابرة لتعميم الاستعاذة والإشعار بعِلّة القساوة والجُرأة على الله تعالى. وقُرئ: "عُذتُّ"[4] بالإدغام.[5]

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾

---

١ أي: "وَأَن يُظْهِرَ" بدَل ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ﴾. قرأ بها نافع وأبو عمرو وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٢ أي: "يَظْهَرَ فِي الأَرْضِ الفَسَادُ". قرأ بها ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي وخلَف وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٤ في الأصول الخطّيّة: "عدت" بالدال، لعلّ ذلك إشارةٌ إلى قَلبها عند الإدغام، إلّا أنّها عند الإدغام تُقلب تاءً، وليس دالًا.

٥ قرأ بها أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلَف وأبو جعفر وهشام عن ابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/١٦.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قيل: كان قِبطيًّا ابنَ عمّ لفرعون آمَن بموسى سرًّا، وقيل: كان إسرائيليًّا، أو غريبًا، موحِّدًا ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥ﴾ أي: مِن فرعون ومَلَئه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتقصدون قتلَه؟ ﴿أَن يَقُولَ﴾ لِأن يقولَ، أو كراهةَ أن يقول: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي: وحدَه مِن غير رَويّة وتأمّلٍ في أمره، ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والحال أنّه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها وعهدتموها ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافَه إليهم بعد ذكر البيّنات احتجاجًا عليهم واستنزالًا لهم عن رتبة المكابرة.

ثمّ أخذهم بالاحتجاجِ مِن باب الاحتياط، فقال: ﴿وَإِن[1] يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطّاه وبالُ كذِبه فيُحتاجَ في دفعه إلى قتله. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ أي: إن لم يصبكم كلُّه فلا أقلّ مِن إصابة بعضه، لا سيّما إن تعرّضتم له بسُوءٍ، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف / وعدم التعصّب، [٢٧و] ولذلك قدَّم مِن شِقَّي الترديد كونَه كاذبًا. أو يُصِبْكم ما يعدكم مِن عذاب الدنيا، وهو بعض ما يعدهم، كأنّه خوّفهم بما هو أظهر احتمالًا عندهم. وتفسير "البعض" بالكلّ مستدِلًّا[2] بقول لَبيد:

تَـــرّاك أمـكـنَـةٍ إذا لـم أرضَـهـا أو يرتَبِطْ بعضَ النفوسِ حمامُها[3]

مردود[4] لِما أنّ مراده بـ"البعض" نفسُه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج آخر ذو وَجهين:

أحدهما: أنّه لو كان مُسرفًا كذّابًا لَما هداه الله إلى البيّنات، ولَما أيّده بتلك المعجزات.

وثانيهما: إن كان كذلك خذَله الله وأهلكه، فلا حاجة لكم إلى قتله.

---

١ م س ي: "فإن".

٢ قال ذلك أبو عبيدة مَعمر بن المثنّى في مجاز القرآن، ٢/٢٠٥. وانظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/١٦٣.

٣ ديوان لبيد بن ربيعة، ص ١١٣. قال الزوزني: «يقول: إنّي تَرّاك أماكن إذا لم أرضها إلّا أن يرتبط نفسي حمامها فلا يمكنها البَراح، وأراد بـ"بعض النفوس" هنا نفسَه، هذا أوجه الأقوال وأحسنها، ومَن جعل "بعض النفوس" بمعنى: كلّ النفوس؛ فقد أخطأ؛ لأنّ بعضًا لا يفيد العموم والاستيعاب، وتحرير المعنى: إنّي لا أترك الأماكن التي أجتويها وأقلوها إلّا أن أموت». شرح المعلّقات السبع للزوزني، ص ١٩٣.

٤ السياق: وتفسير "البعض" بالكلّ... مردود.

ولعلَّه أراهم المعنى الثاني وهو عاكف على المعنى الأوّل لِتَلين شكيمتُهم. وقد عرّض به لفرعون بأنّه مُسرف كذّاب، لا يهديه الله سبيل الصواب ومنهاج النجاة.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين عالين على بني إسرائيل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مِصر، لا يُقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ مِن أخذه وعذابه ﴿إِن جَآءَنَا﴾ أي: فلا تفسدوا أمركم، ولا تتعرّضوا لِبأس الله بقتله، فإنّه إن جاءنا لم يمنعنا منه أحد. وإنّما نسبَ ما يَسرُّهم مِن المُلك والظهور في الأرض إليهم خاصّة ونظَم نفسه في سِلكهم فيما يَسُوءُهم مِن مجيء بأس الله تعالى تطييبًا لقلوبهم، وإيذانًا بأنّه مناصح لهم ساعٍ في تحصيل ما يُجديهم ودفع ما يُرْديهم سعْيَه في حقّ نفسه ليتأثّروا بنُصحه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعدما سمع نصحه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ﴾ أي: ما أُشير عليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وأَستصوِبه مِن قتله، ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: الصواب. أو لا أُعلِمكم إلّا ما أَعلم، ولا أُسِرّ عنكم خلافَ ما أُظهِره. ولقد كذَب حيث كان مستشعِرًا للخَوف الشديد، ولكنّه كان يَتجلَّد، ولولاه لَما استشار أحدًا أبدًا.

وقُرئ بتشديد الشين[1] للمبالغة مِن "رَشِد" كـ"عَلّام"، أو مِن "رَشَد" كـ"عبّاد"، لا مِن "أرشَد" كـ"جَبّار" مِن "أجبَر"؛ لأنّه مقصور على السماع، أو للنسبة إلى الرُّشد كـ"عَوَّاج" و"بَتَّاتٍ" غيرَ منظور فيه إلى فعلٍ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ مخاطبًا لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ في تكذيبه والتعرّض له بالسوء[2] ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ مثلَ أيّام الأمم الماضية، يعني: وقائعهم. وجَمعُ ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ مع التفسير أغنى عن جمع "اليوم".

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

[2] س: بسوء.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾

/ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي: مثلَ جزاء ما كانوا عليه مِن الكفر وإيذاء الرسل. ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوط. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب، ولا يخلّي الظالم منهم بغير انتقام. وهو أبلغ مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت، ٤٦/٤١]، لِما أنّ المنفيّ فيه إرادةُ ظلمٍ مَا، فينتفي الظلم بطريق الأولويّة. [٢٧ظ]

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ[1] إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ خوّفهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي. و﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يوم القيامة؛ لأنّه ينادي فيه بعضهم للاستغاثة، أو يتصايحون بالويل والثبور، أو يتنادى أصحاب الجنّة وأصحاب النار حسبما حُكي في سورة الأعراف.[2] وقُرئ بتشديد الدال،[3] وهو أن يَنِدَّ[4] بعضهم مِن بعض، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ [عبس، ٣٤/٨٠]. وعنِ الضحّاك: «إذا سمعوا زفير النار نَدُّوا هرَبًا، فلا يأتون قُطرًا مِن الأقطار إلّا وجدوا ملائكةً صفوفًا، فبينا هم يموج بعضهم في بعضٍ إذ سمعوا مناديًا: أقبِلوا إلى الحساب».[5]

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾،[6] أي: منصرفين عن الموقف إلى النار، أو فارّين منها حسبما نُقل آنفًا.[7] ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يعصمكم مِن عذابه. والجملة حال أخرى مِن ضمير ﴿تُوَلُّونَ﴾.

---

١ م س ي: يا قَوم.

٢ وهو قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾... الآيات [الأعراف، ٥٠/٧].

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما والكلبي والضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٤ مِن نَدَّ البعير يَنِدُّ نَدًّا ونِدادًا ونُدودًا: نفَرَ وذهب على وجهه شاردًا. انظر: الصِّحاح للجوهري، «ندد».

٥ الكشّاف للزمخشري، ١٦٥/٤. ونحوه في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٥/٨؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ١١/٤.

٦ في الآية السابقة.

٧ على قراءة التشديد في الدال.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى طريق النجاة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام على أنّ فرعونه فرعون موسى، أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد. وقيل: سبطه يوسف بن إبراهيم بن يوسف الصدّيق. ﴿مِن قَبْلُ﴾ مِن قبلِ موسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحة. ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ مِن الدين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ بالموت ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ ضَمًّا إلى تكذيب رسالته تكذيبَ رسالةِ مَن بعده، أو جزمًا بأن لا يُبعث بعدَه رسول مع الشكّ في رسالته. وقُرئ: "أَلَن يَبْعَثَ اللهُ"[1] على أنّ بعضهم يقرّر بعضًا بنفي البعث.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الإضلال الفظيع ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في عصيانه ﴿مُرْتَابٌ﴾ في دينه، شاكٌّ فيما يشهد به / البينات لِغلبة الوهم والانهماك في التقليد. [٢٨و]

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بدل مِن الموصول الأوّل، أو بيان له، أو صفة باعتبار معناه، كأنّه قيل: كلّ مُسرفٍ مرتابٍ، أو المسرفين المرتابين. ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ متعلّق بـ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾، أي: بغير حجّة صالحة للتمسّك بها في الجملة ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ صفةُ ﴿سُلْطَٰنٍ﴾.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فيه ضرب مِن التعجّب والاستعظام. وفي ﴿كَبُرَ﴾ ضمير يعود إلى ﴿مَنْ﴾،[2] وتذكيره باعتبار اللفظ. وقيل: إلى الجدال المستفاد مِن ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ وابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: تفسير السمعاني، ١٩/٥.

[2] في الآية السابقة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الطبع الفظيع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فيصدر عنه أمثال ما ذُكر مِن الإسراف والارتياب والمجادلة بالباطل. وقُرئ بتنوينِ "قَلْبٍ".[1] ووصفُه بالتكبّر والتجبّر لأنّه منبعهما.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي: بناءً مكشوفًا عاليًا، مِن "صرّح الشيءُ" إذا ظَهر. ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ أي: الطرق.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بيان لها. وفي إبهامها ثمّ إيضاحِها تفخيم لشأنها، وتشويق للسامع إلى معرفتها، ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بالنصب على جواب الترجّي. وقُرئ بالرفع[2] عطفًا على ﴿أَبْلُغُ﴾.

ولعلّه أراد أن يبني له رصَدًا في موضع عالٍ ليَرصُد منه أحوال الكواكب التي هي أسباب سماويّة تدلّ على الحوادث الأرضيّة، فيرى هل فيها ما يدلّ على إرسال الله تعالى إيّاه؟ أو أن يُرِيَ فساد قوله عليه السلام بأنّ إخباره مِن إله السماء يتوقّف على اطّلاعه عليه ووصوله إليه، وذلك لا يتأتّى إلّا بالصعود إلى السماء، وهو ممّا لا يقوى عليه الإنسان، وما ذاك إلّا لجهله بالله سبحانه، وكيفيّةِ استنبائِه.

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ فيما يدّعيه مِن الرسالة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: ومثل ذلك التزيين البليغ المُفرط ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فانهمك فيه انهماكًا لا يَرعوي عنه / بحالٍ، ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيل الرشاد. والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى، ويُؤيّده قراءة "زَيَّنَ" بالفتح،[3] [٢٨ظ]

---

١ قرأ بها أبو عمرو وابن عامر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٢ قرأ بها جميع القرّاء العشر غير حفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وكرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

وبالتوسّط الشيطانُ. وقُرئ: "وَصَدَّ"،[١] على أنّ فرعون صَدّ الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشُّبُهَات، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: خسار وهلاك، أو على أنّه مِن "صَدَّ صدودًا"، أي: أعرَض. وقُرئ بكسر الصاد[٢] على نقل حركة الدال إليه. وقُرئ: "وَصَدٌّ"[٣] على أنّه عطفٌ على ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾. وقُرئ: "وَصُدُّوا"،[٤] أي: هو وقومه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ أي: مؤمن آل فرعونَ. وقيل: موسى عليه السلام. ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ فيما دلَلتُكم عليه ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: سبيلًا يصِل سالكه إلى المقصود. وفيه تعريض بأنّ ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغيّ والضلال.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي: تمتُّع يسير لسرعة زوالها. أجملَ لَهم أوّلًا ثمّ فسّر، فافتتح بذمّ الدنيا وتصغير شأنها؛ لأنّ الإخلاد إليها رأس كلّ شرّ، ومنه يتشعّب فنون ما يؤدّي إلى سَخط الله تعالى، ثمّ ثنّى بتعظيم الآخرة فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لخلودها ودوام ما فيها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾

﴿مَنْ عَمِلَ﴾ في الدنيا ﴿سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ﴾ في الآخرة ﴿إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلًا مِن الله سبحانه. وفيه دليل على أنّ الجنايات تُغرَم بأمثالها ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين عملوا ذلك ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٨.

٢ أي: "وَصِدَّ". قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن عبد الرحمن بن أبي بَكرة وابن أبي إسحاق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٨.

أي: بغير تقدير وموازنة بالعمل؛ بل أضعافًا مضاعفة فضلًا مِن الله عزّ وجلّ ورحمةً. وجعلُ العملِ عمدةً والإيمانِ حالًا للإيذان بأنّه لا عبرة بالعمل بدونِه، وأنّ ثوابه أعلَى مِن ذلك.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ كرّر نداءهم إيقاظًا لهم عن سِنة الغفلة، واعتناءً بالمنادى له، ومبالغة في توبيخهم على ما يقابلون به نُصحه. ومدار التعجّب الذي يُلوِّحُ به الاستفهامُ دعوتُهم إيّاه إلى النار، لا دعوتُه إيّاهم إلى النجاة، كأنّه قيل: أخبروني كيف هذه الحال؟ / أدعوكم إلى الخير، وتدعونني إلى الشرّ. وقد جعلَه بعضهم مِن قَبيل "ما لي أراك حزينًا؟"، أي: ما لك تكون حزينًا. [٢٩و]

وقوله تعالى: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدل أو بيان فيه تعليل. والدعاء كالهداية في التعدية بـ"إلى" واللام. ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ﴾ بشركته له تعالى في المعبوديّة، وقيل: بربوبيّته ﴿عِلْمٌ﴾ والمراد نفي المعلوم والإشعار بأنّ الألوهيّة لا بدّ لها مِن برهان موجِب للعلم بها.

﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ الجامع لجميع صفات الألوهيّة مِن كمال القدرة والغلبة، وما يتوقّف عليه مِن العِلم والإرادة، والتمكّنِ مِن المُجازاة، والقدرة على التعذيب والغفران.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿لَا جَرَمَ﴾ ﴿لَا﴾ ردٌّ لِما دعَوه إليه، و﴿جَرَمَ﴾ فعل ماضٍ بمعنى "حَقَّ"، وفاعلُه قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: حقَّ ووجَب عدمُ دعوة آلهتكم إلى عبادتها أصلًا، أو عدمُ دعوة مستجابة، أو عدمُ استجابة دعوة لها. وقيل: ﴿جَرَمَ﴾ بمعنى "كَسَب"، وفاعله مستكِنّ فيه، أي: كَسَب ذلك الدعاءُ إليه بطلانَ دعوته، بمعنى: ما حصل مِن ذلك إلّا ظهورُ بطلان دعوته.

وقيل: ﴿جَرَمَ﴾ فَعَلَ مِن الجَرْم وهو القطع، كما أنَّ "بُدًّا" مِن "لا بُدَّ" فُعْلٌ مِنَ التبديد، أي: التفريق، والمعنى: لا قطعَ لبطلان ألوهيّة الأصنام، أي: لا ينقطع في وقتٍ مّا فينقلِبَ حقًّا، ويؤيّده قولهم: "لا جُرْم أنّه يفعل" بضمّ الجيم وسكون الراء. وفُعْلٌ وفَعَلٌ أخوان، كرُشْد ورَشَدٍ.

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: بالموت، عطف على ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِى﴾، داخل في حكمه، وكذا قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: في الضلال والطغيان كالإشراك وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ وقُرئ: "فَسَتُذَكِّرُونَ"،[1] أي: فسيُذكِّر بعضكم بعضًا عند معاينة العذاب ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ مِن النصائح، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ / قالَه لِما [٢٩ظ] أنّهم كانوا توعَّدوه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرُس مَن يَلوذ به مِن المكاره.

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شدائدَ مَكرهم وما همّوا به مِن إلحاق أنواع العذاب بمَن خالفهم. قيل: نَجا مع موسى عليه السلام. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: بفرعون وقومه، وعدمُ التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذِكره ضرورةَ أنّه أَولى منهم بذلك. وقيل: بِطَلَبَةِ المؤمن مِن قومه، لِما أنّه فرّ إلى جبل فاتَّبعه طائفة ليأخذوه، فوجدوه يصلّي والوحوشُ صفوفٌ حولَه، فرجعوا رُعبًا، فقتلَهم فرعون. ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرق والقتل والنار.

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملة مستأنَفة مَسوقة لبيان كيفيّة سوء العذاب. أو ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر مبتدأ محذوف، كأنّ قائلًا قال: ما سوء العذاب؟ فقيل:

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمران الجوني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

هو النار، و﴿يُعْرَضُونَ﴾ استئناف للبيان. أو بدل[١] مِن ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾، و﴿يُعْرَضُونَ﴾ حال منها، أو مِن "الآل". ولا يُشترط في الحَيْق أن يكونَ الحائق ذلك السوءَ بعينه حتّى يَرِدَ أنّ آلَ فرعونَ لم يهمّوا بتعذيبه بالنار ليكون ابتلاؤهم بها مِن قَبيل رجوعِ ما همّوا به عليهم؛ بل يكفي في ذلك أن يكون[٢] ممّا يُطلَق عليه اسم السوء.

وقُرئت منصوبة[٣] على الاختصاص، أو بإضمار فِعل يفسّره ﴿يُعْرَضُونَ﴾، مثل: يَصْلَوْنَ، فإنّ عَرْضهم على النار بإحراقهم بها، مِن قولهم: عُرِض الأسارى على السيف إذا قُتِلوا به. وذلك لأرواحهم، كما روى ابن مسعود رضي الله عنه: «أنّ أرواحهم في أجواف طيرٍ سُودٍ تُعرض على النار بُكرةً وعَشِيًّا إلى يوم القيامة».[٤] وذِكر الوقتين إمّا للتخصيص، وإمّا فيما بينهما، فالله تعالى أعلم بحالهم، وإمّا للتأبيد، هذا ما دامت الدنيا.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال للملائكة: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: عذابَ جهنّم، فإنّه أشدّ ممّا كانوا فيه، أو أشدَّ عذاب جهنّم، فإنّ عذابها ألوان، بعضها أشدّ مِن بعض. وقرئ: "ادْخُلُوا"[٥] مِن الدخول، أي: يقال لهم: ادخُلُوا يا آلَ فرعونَ أشدَّ العذاب.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: واذكر لقومك وقتَ تخاصمهم فيها، ﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهم رؤساؤهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أتْباعًا، كـ"خَدَم" في جمعِ خادم، أو ذَوِي تَبَعٍ، أي: اتّباعٍ، على إضمار المضاف، أو تَبَعًا

---

١ السياق: أو ﴿ٱلنَّارُ﴾ خبر... أو بدل...

٢ وفي هامش م: أي: الحائق. «منه».

٣ أي: "النَّارَ". قراءة شاذّة، جوّزها الكرماني ولم يذكر قارئًا لها. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

٤ التفسير الوسيط للواحدي، ١٦/٤؛ اللباب لابن عادل، ٦٣/١٧. وأخرجه الطبري في جامع البيان، ٣٣٨/٢٠، عن السدّي.

٥ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٦٥/٢.

[٣٠و] على الوصف / بالمصدر مبالغةً، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بالدفع أو بالحمل، و﴿نَصِيبًا﴾ منصوب بمضمر يدلّ عليه ﴿مُغْنُونَ﴾، أي: دافعون عنّا نصيبًا... إلخ، أو بـ﴿مُغْنُونَ﴾ على تضمينه معنى الحمل، أي: مغنون عنّا حاملين نصيبًا... إلخ، أو نصب على المصدريّة كـ﴿شَيْـًٔا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران، ٣/١٠]، فإنّه في موقع "غِنًى"، فكذلك ﴿نَصِيبًا﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ أي: نحن وأنتم، فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا لأغنينا عن أنفسنا. وقُرئ: "كُلًّا"[١] على التأكيد لاسم "إنّ"، بمعنى "كُلَّنَا". وتنوينُه عوض عن المضاف إليه، ولا مساغَ لجَعله حالًا مِن المستكِنّ في الظرف، فإنّه لا يعمل في الحال المتقدّمة كما يعمل في الظرف المتقدّم، فإنّك تقول: كلَّ يوم لك ثوب، ولا تقول: جديدًا لك ثوب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ وقضى قضاءً مُتقنًا لا مردّ له، ولا معقِّبَ لحكمه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ﴾ مِن الضعفاء والمستكبرين جميعًا لمّا ضاقت حِيَلُهم وعيَتْ بهم عِللُهم ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي: للقوّام بتعذيب أهل النار. ووضع ﴿جَهَنَّمَ﴾ موضع الضمير للتهويل والتفظيع، أو لبيان محلِّهم فيها بأن تكون جهنّم أبعدَ دركات النار، وفيها أعتى الكفَرة وأطغاهم، أو لكون الملائكة الموكَّلينَ بعذاب أهلها أقدَرَ على الشفاعة لمزيد قربهم مِن الله تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أي: مقدار يوم، أو في يوم مّا مِن الأيّام، على أنّه ظرف لا معيارٌ، شيئًا ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ واقتصارُهم في الاستدعاء على ما ذُكر مِن تخفيف قَدر يسير مِن العذاب في مقدار قصير مِن الزمان دون رفعه رأسًا، أو تخفيفِ قَدر كثير منه في زمان مديد؛ لأنّ ذلك عندهم ممّا ليس في حيّز الإمكان، ولا يكاد يدخل تحت أمانيّهم.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

﴿قَالُوٓاْ أَوَ لَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٥٠﴾

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الخزنة ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أي: ألم تُنبَّهُوا على هذا؟ ولَم تكُ تأتيكم رسلكم في الدنيا على الاستمرار بالحججِ الواضحة الدالّة على سُوء مَغَبَّةِ ما كنتم عليه مِن الكفر والمعاصي؟ كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ [الزمر، ٣٩/٧١]، أرادوا بذلكَ إلزامهم وتوبيخهم على إضاعة أوقات الدعاء وتعطيل أسباب الإجابة.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أي: أتَوْنَا بها فكذَّبناهم، / كما نطق به قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا [٣٠ظ]
نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك، ٦٧/٩]. والفاء في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾ فصيحة، كما في قول مَن قال:

فقد جِئنا خُراسانا[1]

أي: إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإنّ الدعاء لمَن يفعل ذلك ممّا يستحيل صدوره عنّا، وتعليل امتناعهم عن الدعاء بعدم الإذن فيه -مع عَرائه عن بيان أنّ سببه مِن قِبَلِهم كما يُفصح عنه الفاء- ربّما يوهم أنّ الإذن في حيّز الإمكان، وأنّهم لو أُذِن لهم فيه لفعلوا. ولم يريدوا بأمرهم بالدعاء إطماعَهم في الإجابة؛ بل إقناطَهم منها وإظهارَ خَيبتهم حسبما صرّحوا به في قولهم: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ أي: ضياعٍ وبطلانٍ.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾... إلخ كلام مستأنَف مَسوق مِن جهته تعالى لبيان أنّ ما أصاب الكفَرة مِن العذاب المحكي مِن فروعِ حُكم كلّي

---

[1] تمامه:
قالوا خراسانُ أقصى ما يُراد بنا
ثمّ القفولُ فقد جئنا خُراسانا
وهو للعبّاس بن الأحنف حين خرج مع الرشيد إلى خراسان، وهو في ديوانه، ص ٢٧٩. | قال ابن الأثير: «وحقيقتها [أي: "الفاء" في "فقد"] أنّها في جواب شرط محذوف يدلّ عليه الكلام، كأنّه قال: إن صحّ ما قلتم: إنّ خراسان أقصى ما يُراد بنا، فقد جئنا خراسان، وآن لنا أن نخلص». المثل السائر لابن الأثير، ٢/٢٤٩.

يقتضيه الحكمة، وهو أنّ شأننا المستمرّ أنّا ننصر رسلنا وأتباعهم ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالحجّة والظفر والانتقام لهم مِن الكفرة بالاستئصال والقتل والسبْي وغير ذلك مِن العقوبات، ولا يقدح في ذلك ما قد يتّفق لهم مِن صورة الغلبة امتحانًا؛ إذِ العبرة إنّما هي[1] بالعواقبِ وغالب الأمر.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي: يوم القيامة. عُبّر عنه بذلك للإشعار بكيفيّة النصرة، وأنّها تكون عند جمع الأوّلين والآخِرين بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ بدل مِن الأوّل، وعدمُ نفعِ المعذرة لأنّها باطلة. وقُرئ: "لَا تَنْفَعُ" بالتاء.[2] ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: البعد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: جهنّم.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ما يُهتدَى به مِن المعجزات والصحف والشرائع، ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وتركنا عليهم مِن بعده التوراة.

﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ هداية وتذكرة، أو هاديًا ومذكِّرًا / ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لذوي العقول السليمة العاملين بما في تضاعيفه. [٣١و]

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾

﴿فَٱصْبِرْ﴾ على ما نالك مِن أذيّة المشركين، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: وعدَه الذي ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۞ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات، ٣٧/١٧١-١٧٣]. أو وعدَه الخاصّ بكَ،

---

[1] س - إنّما هي.

[2] قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٥.

أو جميعَ مواعيده التي مِن جملتها ذلك ﴿حَقٌّ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلًا، واستشهد بحال موسى وفرعون.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ تداركًا لِما فرَط منك مِن ترك الأَولى في بعض الأحايين، فإنّه تعالى كافيك في نصرة دينك وإظهارِه على الدّين كلِّه. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ أي: ودُم على التسبيح ملتبِسًا بحمده تعالى. وقيل: صلِّ لهذين الوقتين؛ إذ كان الواجب بمكّة ركعتين بُكرة وركعتين عَشِيًّا. وقيل: صلِّ شُكرًا لِربّكَ بالعَشِيّ والإبكار. وقيل: هما صلاة العصر وصلاة الفجر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ويجحدون بها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ في ذلك مِن جهته تعالى. وتقييد المجادلة بذلك مع استحالة إتيانه للإيذان بأنّ التكلّم في أمر الدين لا بدّ مِن استناده إلى سلطان مبين البتّةَ، وهذا عامّ لكلّ مجادِل مبطلٍ، وإن نزل في مشركي مكّة.

وقوله تعالى: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ خبر لـ﴿إِنَّ﴾، أي: ما فِي قلوبهم إلّا تكبّر عن الحقّ وتعظّم عن التفكّر والتعلّم، أو إلّا إرادةُ الرياسة والتقدّم على الإطلاق، أو إلّا إرادةُ أن يكون النبوّة لهم دونك حسدًا وبغيًا حسبما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف، ١١/٤٦]، ولذلك يجادلون فيها، لا أنّ فيها موقعَ جدالٍ مّا، أو أنّ لهم شيئًا يُتوهّم أن يصلح مدارًا لِمُجادلتهم في الجملة.

وقوله تعالى: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ صفة لـ﴿كِبْرٌ﴾. قال مجاهد: «ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكِبر، وهو ما أرادوه مِن الرياسة / أو النبوّة». وقيل: المجادلون [٣١ظ] هم اليهود، وكانوا يقولون: «لست صاحبَنا المذكور في التوراة؛ بل هو المسيح بن داود -يريدون الدجّال- يخرج في آخر الزمان، ويبلغ سلطانه البرّ والبحر، وتسير معه الأنهار، وهو آية مِن آيات الله تعالى، فيرجع إلينا المُلك». فسمّى الله تعالى تمنّيهم ذلك كِبرًا، ونفى أن يبلغوا مُتمنّاهم.

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي: فالتجئ إليه مِن كيد مَن يحسدك ويبغي عليك، وفيه رمز إلى أنّه مِن همزات الشياطين. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ تحقيق للحقّ، وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه مِن أمر البعث، على منهاج قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس، ٣٦/٨١]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقصورهم في النظر والتأمّل لفرط غفلتهم واتّباعهم لأهوائهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الغافل والمستبصر، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ﴾ أي: والمحسِن والمسيء، فلا بدّ أن يكون لهم حال أُخرى يظهر فيها ما بين الفريقين مِن التفاوت، وهي فيما بعد البعث وزيادةٍ، لا في المسيء، لتأكيد النفي لطول الكلام بالصلة، ولأنّ المقصود نفي مساواته للمُحسن فيما له مِن الفضل والكرامة، والعاطفُ الثاني عَطف الموصول بما عُطف عليه على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ لتغاير الوصفين في المقصود أو الدلالة بالصراحة والتمثيل.

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ على الخطاب بطريق الالتفات، أي: تذكّرًا قليلًا تَتذكّرون. وقُرئ على الغيبة،[1] والضمير للناس أو الكفّار.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: في مجيئها لوضوحِ شواهدها وإجماعِ الرسل على الوعد بوقوعها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدّقون بها لقصور أنظارهم على ظواهر ما يحسّون به.

---

[1] قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٥.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ أي: اعبدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي: أُثِبْكم، لقوله تعالى: / ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين أذِلّاء، وإن فسّر الدعاء بالسؤال كان الأمر الصارِف عنه منزّلًا منزلةَ الاستكبار عن العبادة للمبالغة، أو المرادُ بالعبادة الدعاء، فإنّه مِن أفضل أبوابها. وقُرئ: "سَيُدْخَلُونَ"[1] على صيغة المبنيّ للمفعول مِن الإدخال. [٣٢و]

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ بأن خلَقه باردًا مُظلِمًا ليُؤدّيَ إلى ضَعف المحرِّكات وهُدُوءِ الحواسّ لتستريحوا فيه. وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول قد مرّ سرّه مرارًا. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُبْصَرًا فيه أو به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيمٍ لا يوازيه ولا يدانيه فضل. ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لجهلهم بالمُنعِم، وإغفالِهم مواضع النعم، وتكريرُ الناس لتخصيص الكُفران بهم.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المتفرّد بالأفعال المقتضية للألوهيّة والربوبيّة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبار مترادفة تخصّص اللّاحقةُ منها السابقةَ وتُقرِّرها. وقُرئ: "خَالِقَ" بالنصب[2] على الاختصاص، فيكون ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ استئنافًا بما هو كالنتيجة للأوصاف المذكورة.

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو جعفر ورُويس عن يعقوب وشعبة عن عاصم بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف ومِن أيّ وجه تُصرَفون عن عبادته خاصّةً إلى عبادة غيره؟

﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: مثل ذلك الإفك العجيب الذي لا وجه له ولا مصحِّح أصلًا يُؤفَك كلُّ مَن جحد بآياته تعالى أيَّ آية كانت، لا إفكًا آخر له وجهٌ ومصحِّح في الجملة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ بيان لفضله تعالى المتعلِّق بالمكان بعد بيان فضله المتعلِّق بالزمان. وقوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بيان لفضله المتعلِّق بأنفسهم، والفاء في ﴿فَأَحْسَنَ﴾ تفسيريّة، فإنّ الإحسان عين التصوير، أي: صوّركم أحسنَ تصوير حيث خلَقكم منتصبَ القامة، باديَ البشرة،[1] متناسبَ الأعضاء والتخطيطات، متهيّئًا لمُزاولة الصنائع واكتساب الكمالات.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: اللذائذ. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي نُعت بما ذُكر مِن
[٣٢ظ] / النعوت الجليلة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ خبران لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ أي: تعالى بذاته ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مالكهم ومربّيهم، والكلّ تحت ملكوته مفتقر إليه في ذاته ووجوده وسائر أحواله جميعًا بحيث لو انقطع فيضه عنه آنًا لَانعدم بالكلّيّة.

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

﴿هُوَ ٱلْحَىُّ﴾ المتفرِّد بالحياة الذاتيّة الحقيقيّة. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجود يُدانيه في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبدوه خاصّةً، لاختصاص ما يوجبه[2] به تعالى، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: الطاعةَ مِن الشرك الجليّ والخفيّ.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: قائلين ذلك، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «مَن قال: لا إله إلّا الله، فليقل على إثْرها: الحمد لله ربّ العالمين».[3]

---

١ س: البشريّة.

٢ س: يوجب.

٣ جامع البيان للطبري، ٢٠/٣٥٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٢٠؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/١٧٦.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ مِن الحُجج والآيات، أو مِن الآيات لكونها مؤيِّدة لأدلّة العقل منبِّهة عليها، فإنّ الآيات التنزيليّة مفسِّرات للآيات التكوينيّة الآفاقيّة والأنفسيّة.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: بأن أنقادَ له وأُخلِص له ديني.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي: في ضِمن خلق آدَم عليه السلام منه حسبما مرّ تحقيقه مرارًا. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أي: ثمّ خلقكم خلقًا تفصيليًّا مِن نطفة، أي: مَنيّ. ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أي: أطفالًا. والإفراد لإرادة الجنس، أو لإرادة كلّ واحد مِن أفراده. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ علّة لـ﴿يُخْرِجُكُمْ﴾ معطوفة على علّة أخرى له مناسِبةٍ لها، كأنّه قيل: ثمّ يخرجكم طِفلًا لِتكبُروا شيئًا فشيئًا، ثمّ لتبلغوا كمالكم في القوّة والعقل، وكذا الكلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا﴾، ويجوز عطفه على ﴿لِتَبْلُغُوا﴾. وقُرئ: "شَيْخًا"[1] كقوله تعالى: ﴿طِفْلًا﴾.

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِن قبل الشيخوخة بعد بلوغ الأشدّ أو قبله أيضًا. ﴿وَلِتَبْلُغُوا﴾ متعلّق بفعل مقدّر بعده، أي: ولتبلغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ هو وقت الموت أو يوم القيامة يفعل ذلك.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ / ولكي تعقلوا ما في ذلك مِن فنون الحِكَم والعِبَر. [٣٣و]

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي﴾ الأمواتَ ﴿وَيُمِيتُ﴾ الأحياءَ، أو الذي يفعل الإحياء والإماتة، ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي: أراد أمرًا مِن الأمور ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾

---

١ قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٦٣/٥.

مِن غير توقّف على شيء مِن الأشياء أصلًا، وهذا تمثيل لتأثير قُدرته تعالى في المقدورات عند تعلّق إرادته بها، وتصوير لسرعة ترتّب المكوَّنات على تكوينه مِن غير أن يكون هناك أمر ومأمور.[1] والفاء الأولى للدلالة على أنّ ما بعدها مِن نتائج ما قبلها مِن اختصاص الإحياء والإماتة به سبحانه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ۝٦٩ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠﴾

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ تعجيب مِن أحوالهم الشنيعة وآرائِهم الركيكة، وتمهيد لِما يعقُبه مِن بيان تكذيبهم بكلّ القرآن وبسائر الكتب والشرائع، وترتيبِ الوعيد على ذلك، كما أنّ ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾...[2] إلخ [غافر، ٥٦/٤٠] بيان لابتناء جدالهم على مبنًى فاسدٍ لا يكاد يدخل تحت الوجود، هو الأمنيّة الفارغة،[3] فلا تكرير فيه، أي: انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها كيف يُصرَفون عنها مع تعاضدِ الدواعي إلى الإقبال عليها وانتفاءِ الصوارف عنها بالكلّيّة.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: بكلّ القرآن، أو بجنس الكتب السماويّة، فإنّ تكذيبه تكذيبٌ لها. في محلّ الجرّ على أنّه بدل مِن الموصول الأوّل، أو في حيّز النصب أو الرفع على الذمّ، وإنّما وُصِل الموصول الثاني بالتكذيب دون المجادَلة لأنّ المعتاد وقوع المجادَلة في بعض الموادّ لا في الكلّ. وصيغة الماضي للدلالة / على التحقّق كما أنّ صيغة المضارع في الصلة [٣٣ظ] الأولى للدلالة على تجدّد المجادَلة وتكرّرها.

﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ مِن سائر الكتب أو مطلَق الوحي والشرائع، ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ كُنْهَ ما فعلوا مِن الجدال والتكذيب عند مشاهدتهم لعقوباته.

---

[1] س: ولا مأمور.

[2] س - ٱللَّهِ.

[3] س: الفارغة.

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾

﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ ظرف لـ﴿يَعْلَمُونَ﴾،[1] إذ المعنى على الاستقبال، ولفظُ الماضي لتيقّنه. ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾. والجارّ في نيّة التأخير، وقيل: مبتدأ حُذف خبره لدلالة خبر الأوّل عليه. وقيل: قوله تعالى: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ بحذف العائد، أي: يسحبون بها، وهو على الأوّلَين حال مِن المستكِنّ في الظرف. وقيل: استئناف وقع جوابًا عن سؤال نشأ مِن حكاية حالهم، كأنّه قيل: فماذا يكون حالهم بعد ذلك؟ فقيل: يُسحبون.

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ وقُرئ: "والسَّلَاسِلَ يَسْحَبُونَ" بالنصب وفتح الياء[2] على تقديم المفعول وعطفِ الفعليّة على الاسميّة، و"السَّلَاسِلِ" بالجرّ[3] حملًا على المعنى؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ في معنى: أعناقُهم في الأغلال، أو إضمارًا للباء، ويدلُّ عليه القراءة به.[4]

﴿ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ أي يُحرَقون، مِن "سَجَر التنّورَ" إذا ملأَه بالوَقود، ومنه "السَّجِير" للصَّديق، كأنّه سُجِر بالحبّ، أي: مُلئ، والمراد بيانُ أنّهم يعذَّبون بألوان العذاب ويُنقَلون مِن باب إلى باب.

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي: يقال لهم ويقولون. وصيغة الماضي للدلالة على التحقّق، ومعنى ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾: غابوا عنّا، وذلك قبل أن يُقرَن بهم آلهتُهم، أو ضاعوا عنّا فلم نجد ما كنّا نتوقّع منهم.

---

١ في الآية السابقة.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وابن عبّاس رضي الله عنهم وابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤١٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧١/٩.

٤ أي: "وَبِالسَّلَاسِلِ". وهي قراءة شاذّة، ذكرها المفسّرون ولم أجد مَن ذكر قارئها. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١٧٨/٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٢٧٢/٩.

﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: بل تَبيَّن لنا أنّا لم نكن نعبد شيئًا بعبادتهم لِما ظهَر لنا اليوم أنّهم لم يكونوا شيئًا يُعتدّ به، كقولك: حسبته شيئًا فلم يكن.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثل ذلك الضلال الفظيع ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ / حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم في الآخرة، أو كما ضلّ عنهم آلهتُهم يُضلّهم عن آلهتهم، حتّى لو تَطالَبوا لم يَتصادفوا. [٣٤و]

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: تَبطَرون وتتكبّرون ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشرك والطغيان، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ تتوسّعون في البِطَر والأَشَرِ. والالتفات للمبالغة في التوبيخ.

﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي: أبوابَها السبعة المقسومة لكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مقدَّرًا خلودكم فيها. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: عن الحقِّ جهنّمُ. والتعبير عن مَدخلهم بـ"المَثوى" لكون دخولهم بطريق الخلود.

﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَٱصْبِرْ﴾ إلى أن يلاقوا ما أُعِدّ لهم مِن العذاب، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بتعذيبهم ﴿حَقٌّ﴾ كائن لا محالةَ، ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي: فإن نُرِك، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد الشرطيّة، ولذلك لحِقت النونُ الفعل، ولا تلحقه مع "إنْ" وحدَها. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ وهو القتل والأسر، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك، ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فنجازيهم بأعمالهم، وهو جواب ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوف، مثل: فذاك، ويجوز أن يكون جوابًا لهما، بمعنى: إن نُعَذِّبْهم في حياتك أو لم نُعَذِّبْهم فإنّا نعذِّبُهم في الآخرة أشدَّ العذاب وأفظعَه، كما يُنبئ عنه

الاقتصار على ذكر الرجوع في هذا المِعرَض.[١]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ إذ قيل: عدد الأنبياء عليهم السلام مائة ألفٍ[٢] وأربعةٌ وعشرون ألفًا، والمذكور قَصصهم أفرادٌ معدودة. وقيل: أربعة آلاف مِن بني إسرائيل، وأربعة آلاف مِن سائر الناس.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ أي: وما صحّ وما استقام لرسول منهم ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنّ المعجزات على تشعّب فنونها عطايا مِن الله تعالى قسمَها بينهم حسبما اقتضته مشيئته المبنيّة على الحِكَم / البالغة كسائر القِسَم، ليس لهم [٣٤ظ] اختيار في إيثار بعضها والاستبدادِ بإتيان المقترَح بها.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ بإنجاء المُحِقّ وإثابته، وإهلاك المُبطل وتعذيبه، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت مجيء أمر الله، اسم مكان استعير للزمان. ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: المتمسّكون بالباطل على الإطلاق، فيدخل فيهم المعاندون المقترِحون دخولًا أوّليًا.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾ قيل: هي الإبل خاصّة، أي: خلقها لأجلِكم ومصلحتكم. وقوله تعالى: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ تفصيل لِما دلّ عليه اللام إجمالًا، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، ومعناها ابتداءُ الركوب والأكل منها، أي: تعلّقُهما بها. وقيل: للتبعيض، أي: لتركبوا بعضَها وتأكلوا بعضَها، لا على أنّ كلًّا

---

١ كذا في **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٦٤/٥. وقال الشهاب الخفاجي: «المِعرض بكسر الميم، ووقع في **شرح الشافية** ضبطه بالفتح، والصحيح الأوّل، ومعناه: هذا القبيل». **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي**، ٣٨٣/٧.

٢ س - ألف.

مِن الركوب والأكل مختصّ ببعض معيّن منها بحيث لا يجوز تعلّقه بما تعلّق به الآخر؛ بل على أنّ كلّ بعض منها صالح لكلّ منهما. وتغيير النظم الكريم في الجملة الثانية لمراعاة الفواصل مع الإشعار بأصالة الركوب.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ أُخَر غير الركوب والأكل، كألبانها وأوبارها وجلودها، ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ بحمل أثقالكم مِن بلد إلى بلد. ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ لعلّ المرادَ به حمل النساء والولدان عليها بالهَودج، وهو السرّ في فصله عن الركوب. والجمع بينها وبين الفُلك في الحمل لِما بينهما مِن المناسبة التامّة حتّى سمّيت سفائنَ البَرّ.

وقيل: هي الأزواج الثمانية، فمعنى الركوب والأكل منها تعلّقُهما بالكلّ، لكن لا على أنّ كلًّا منهما يجوز تعلّقه بكلّ منها، ولا على أنّ كلًّا منهما مختصّ ببعض معيّن منها بحيث لا يجوز تعلّقه بما تعلّق به الآخر؛ بل على أنّ بعضها يتعلّق به الأكل فقط كالغنم، وبعضَها يتعلّق به كلاهما كالإبل والبقر، والمَنافع تعمّ الكلّ، وبلوغ الحاجة عليها يعمّ البقر.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائله الدالّةَ على كمال قدرته وَوُفور رحمته، ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ / أي: فأيّ آية مِن تلك الآيات الباهرة ﴿تُنكِرُونَ﴾؟ فإنّ كلًّا منها مِن [٣٥و] الظهورِ بحيثُ لا يكاد يَجترئ على إنكارها مَن له عقل في الجملة. وهو ناصب لـ﴿أَىَّ﴾، وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتربية المَهابة وتهويل إنكارها. وتذكير ﴿أَىَّ﴾ هو الشائع المستفيض، والتأنيث قليل؛ لأنّ التفرقة بين المذكّر والمؤنّث في الأسماء غيرِ الصفات -نحو: حِمار وحمارة- غريبٌ، وهي في ﴿أَىَّ﴾ أغرب لإبهامه.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ أي: أقعدوا فلم يسيروا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن الأمم المهلَكة؟ وقوله تعالى: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾... إلخ استئناف مَسوق لبيان مبادي أحوالهم وعواقبها. ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ باقيةً بعدهم مِن الأبنية والقصور والمصانع. وقيل: هي آثار أقدامهم في الأرض لعِظَم أجرامهم.

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ﴿مَا﴾ الأُولى نافية أو استفهاميّة منصوبة بـ﴿أَغْنَىٰ﴾، والثانية موصولة أو مصدريّة مرفوعة، أي: لم يُغنِ عنهم -أو أيّ شيء أغنى عنهم- مكسوبُهم، أو كسبُهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات، أو بالآيات الواضحة ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: أظهروا الفرح بذلك، وهو ما لهم مِن العقائد الزائغة والشُبَهِ الداحضة. وتسميتها عِلمًا للتهكّم بهم، أو عِلمُ الطبائع والتنجيم والصنائع ونحو ذلك، أو هو علمُ الأنبياء الذي أظهره رسلُهم على أنّ معنى فرحهم به ضحكُهم منه واستهزاؤهم بهِ، ويؤيّده قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. وقيل: الفرح أيضًا للرسل، فإنّهم لمّا شاهدوا تماديَ جهلِهم وسوءَ عاقبتهم فرحوا بما أُوتوا مِن العِلم المؤدّي إلى حسن العاقبة، وشكروا الله عليه، وحاق بالكافرين جزاء جهلهم واستهزائِهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ شدّةَ عذابنا، / ومنه قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍ﴾ [الأعراف، ٧/١٦٥]. ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ يَعنون الأصنام. [٣٥ظ]

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ أي: عندَ رؤية عذابنا لامتناعِ قبوله حينئذ، ولذلك قيل: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ بمعنى: لم يصحّ ولم يستقِم.

والفاء الأولى[1] بيان عاقبة كثرتهم وشدّة قوّتهم وما كانوا يكسبون بذلك زعمًا منهم أنّ ذلك يغني عنهم، فلم يترتّب عليه إلّا عدمُ الإغناء، فبهذا الاعتبار جرى مَجرى النتيجة، وإن كان عكسَ الغرض ونقيضَ المطلوب، كما في قولك: وعظتُه فلم يتّعظ. والثانية[2] تفسير وتفصيل لِما أُبهِم وأُجمِل مِن عدم الإغناء، وقد كثر في الكلام مِثل هذه الفاء، ومبناها على أنّ التفسير بعد الإبهامِ والتفصيلَ بعد الإجمال. والثالثة[3] لِمجرّد التعقيب وجعلِ ما بعدها تابعًا لِما قبلها واقعًا عقيبه؛ لأنّ مضمون قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾... إلخ[4] هو أنّهم كفروا فصار مجموع الكلام بمنزلة أن يقال: فكفروا ثمّ لمّا رأَوا بأسنا آمنوا. والرابعة[5] للعطف على "آمَنوا"، كأنّه قيل: فآمنوا فلم ينفعهم؛ لأنّ النافع هو الإيمان الاختياري.

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أي: سنّ الله[6] ذلك سنّةً ماضية في العباد، وهو مِن المصادر المؤكِّدة. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: وقت رؤيتهم البأسَ، على أنّه اسم مكان قد استُعير للزمان كما سلف آنِفًا.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المؤمن لم يبقَ روح نبيّ ولا صِدّيق ولا شهيد ولا مؤمن إلّا صلّى عليه واستغفر له».[7]

---

١ في قوله: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ﴾ [غافر، ٨٢/٤٠].

٢ في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ﴾ [غافر، ٨٣/٤٠].

٣ في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ في الآية السابقة.

٤ غافر، ٨٣/٤٠.

٥ في قوله: ﴿فَلَمْ يَكُ﴾ في هذه الآية.

٦ س + تعالى.

٧ **الكشف والبيان** للثعلبي، ٢٦٢/٨؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٣/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١.